رحلة العبد الغريب في جنبات الربع العجيب

ادريس الصغيـر

الانامل الصفراء المعروقة المتيبسة تدلك صفحة الجبـن المتجعـدة العريضة ، ودخينة التبغ الاسود الرخيصة تحترق بين الشفتين المتشققتين . هذا أنا . وهذه اللعنة كفيل كارطوني ضخم مخيف .

الانامل تدلك صفحة الجبين ، تمعك الحبيبات المقيحة . تـلامس شعيـرات الرأس التي لم تعرف في يوم ما تصفيفا ولا مستحضرات طبية أو صابونا معطرا ، وشرر العين يمسح المرئيات بحقد . حدق تشاهد عجبا .

هذا أنا . وهذه اللعنة الفيل الكارطوني المخيف .

انتبه ـ الآن تبدأ اللعبة ان تحدق تشاهد عجبا .

« ومن عجيب الامر في هذا الربع ان الرجل منهم ينزع قلب جاره أو صديقه او قريبه ثم يخلطه بشيء من الملح والفلفل ويشويه على النار مدة يسيرة فاذا أكله رفع عينيه الى أعلى وما طلب بعد ذلك شيئا من نعم الدنيا الا نـاله . وللحيطان عندهم عيون كعيون البشر وأسماع . لذلك ترى الرجل منهـم يهمس في أذن صاحبه ان أراد حقا ، ويجهر ان زعم باطلا . والمارق عن نواميس مدينتهم يسجلون اسمه على فرع من شجرة البلوط بقلمونه تقليما حسنا ثم يرشون عليه شيئا من ماء الزهر فاذا اطلقوا البخور عند مغرب الشمس ورموا بالفرع في أعماق النهر غاب الرجل ولم يعرف له مصير بعد ذلك . ومن المناظر المألوفة عندهم في هذا الربع أن الرجل منهم يكون سائرا في الشارع لقضاء وطر فاذا به ينعدم وكأن ايادي خفية اختطفته الى حيث لا يعلم أحد . ويعزي بعض الفقهاء هذه الحالة الاخيرة الى تواجد فصيلة من الجن الخبيث بهذا الربع ، غير أن كثيرين يعلمون سر هذه الظاهرة لكنهم لا يخوضون في هذا لان نواميس المدينة تحرم ذلك ، وهذا منصوص عليه في القانون الاول من مسطرة الجنايات الكبرى باب : ما تقول وما لا تقول . أو كما يسميه بعض المتفكهين : باب . لا تقل بل قل . »

وقد حكى أحد الرحالة عن الربع في كتابه : « رحلة العبد الغريب في جنبات الربع العجيب » فقـال :

« ربع أين منه الفردوس ، صفى ماؤه ونما زرعه واخضر سهله وخصبت أرضه ودنت قطوفه . خيراته لا يحصيها البشر ، ومحاسنه لا يشبع منها النظر ، وأمره يحير الالباب والفكر . كنت أخال ساكنيه أسعد الانام وقاطنيه خير من يرفل في حلل الامن والسلام ، لكنني لما عاينت أمرهم ، واستقصيت همهم أدركت أنهم في بؤس بئيس . في مشيتهم انكساره ، وفي طعامهم مرارة وتومض من عيونهم ألف شرارة ، ويعزي الفقهاء حالة أهل الربع العجيب وانـــزلاق عيشهم الى أسفل الحضيض بتوافر عينة من الجن المارد ، يستأثر وحده دونهم بتصريف الخيرات المورد منها والوارد ، ولا يبقى لهم منها سوى ما عنه قضل ، وما لم تستسغه نفسه من طعام أو بقل . هذا ما حدثني بـــه فقيه بكلام مبهم والله عز وجل بما قاله القائل أعلم . »

ـ هذا الربع ليس موجودا الا في خيالك .
ـ بل هو موجود حقيقة . فقط حدق تشاهد عجبا .

« ... ولما عاينا حالة المعني بالامر ، اكتشفنا أنه مخبول يهذي بربع خيالي لا وجود له مطلقا ، وهو تارة يسميه ربعا وأخرى يكنيه مدينة ، لذلك نقترح الحاقه بمستشفى المجانين قصد العلاج .
ملاحظة هامة جدا : المعني بالامر مسالم لا يستعمل يديه بتاتا ، فقط يكتفي باستخدام لسانه لكن عينيه ترسلان شررا غريبا نخال أنه يكبت في باطنه شيئا قد ينفجر يوما . عاملوه بكثير من الحيطة والحذر » .
وتدلك الانامل الصفراء المعروقة صفحة الجبين ثم تمعك علبة السجائر السوداء الرخيصة لتقذفها القدم بعيدا بركلة لاعب كرة محترف .
هذا انـــا . واللعنـــة .
انا وانت ايتها اللعنة والزمن بيننا طويل .
ولما اختفى تلك الليلة لم يبكه أحد . وحدها التي قاسمته حياة الجوع والمرض والخوف والانكسار . وحدها تجر الدمع في مقلتيها الواسعتيـــن الجميلتيـــن وأصابها ذهول بارد رهيب .
« والملاحظ عند أهل الربع أنهم ينسون المختفي منهم نسيانا تاما وينصرفون الى أمور دنياهم انصرافا كليا ، وقليل منهم من يذكره في فرق وهمس واضطراب خشية الجن الخبيث . ويقول بعض العالمين بالامور بأن الناسين انما يدعون النسيان . اذ أنهم يحرجون متى ذكرهم أحد فيتلعثمون في الكلام ويلجؤون الى تمطيط شفاههم ورفع مناكبهم وحك بطونهم المنتفخة » .
وحدها . والليل بهيم ، ليل الدموع والجوع والبرد والرهبة .
قد يكون الآن ملصقا الى جذع نخلة يكتسي بثوب السافيات . قد يكون في أعماق نهر تلتهم الحيتان مقلتيه . قد يكون ...
حين جلس الى أصدقائه بالمقهى في آخر يوم له لم ينبس ببنت شفة ، فقط

اكتفى بالاستماع ، بل انه لم يختطف من الحديث سوى جمل مبتورة وضحكات فاترة . كان يفرط في ملء رئتيه من دخان سجائـره الرخيصـــة . كان منذ أن قذفت به أمه خارج بطنها يعيش حياة كلب . لم يطعم في حياته سوى النفايات . لم يضحك يوما . لم يشبع . لم يشعر يوما بانسانيته . صادروا منه كل شيء . قتلوا فيه كل شيء . كان يعيش حياة كلب . وكانت أفواج الكلاب تمارس حياتها الوضيعة على أرصفة الطرقات وبين طـاولات المقاهي وأبواب الاسواق العصرية النظيفة . أيادي منتفخة محاطة بجبيـرة قصبية ، عيون ينخرها الجذام ، أرجل خشبية تحفر بحقد أديم الارض . وجوه كالحة وأرجل معروقة وصدور فارغة .

لما اشرقت الشمس ذلك الصباح كان موج البحر صاخبا ، ولما حدقت جيدا بمقلتيها الجميلتين لمحت في المدى البعيد قاربا يصارع الامواج . كان يعلو تارة ويهبط أخرى لكنه يظل متواجدا فوق صفحة الماء الغاضبة . تفقدت أرجاء غرفتها بعينيها الجميلتين . كانت رائحته الغريبة الحبيبة تعبق المكان . تفوح من كتبه وثيابه ووسادته . وتحجر الدمع في مقلتيها .

ادريس الصغير